وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا
مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يٰسٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يٰسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى
ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ
مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟
وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

[٤٥] ثم ختم جل وعلا السورة ببيان أن رحمته ولطفه بعبادة اقتضت عدم استئصالهم؛ فأخبر سبحانه أنه لو عاقب الناس بما اقترفوا من الذنوب والمعاصي ما ترك علىٰ ظهر الأرض من دابة تدب عليها، ولكن يمهلهم ويؤخر عقابهم إلىٰ وقت معلوم عنده لحكم عظيمة؛ فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرًا؛ فيعفو عمن يستحق العفو، ويعاقب من يستحق العقوبة.

سورة يس

سورة يس مكيّة وآياتها ثلاث وثمانون آية. وقد نُقِلَ عن الغزالي أنه قال: سُمِّيت (يس): بقلب القرآن؛ لأن صحة الإيمان تكون بالاعتراف بالحشر والنشر، وهذا مثبت في هذه السورة بأكمل وجه؛ فقد جمعت هذه السورة الوحدانية والرسالة والحشر.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. قال بعض المفسرين: ﴿يٰسٓ﴾ اسم للسورة، وقال ابن عباس: إن معناها ياإنسان ببعض اللهجات العربية، وقال ابن الحنفية: هو اسم لمحمد ﷺ بدليل قوله بعدها: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. [٢-٣-٤] بدأت السورة بإقسام الله بهذا القرآن العظيم المحكم بما فيه من التوجيهات والتشريعات والآداب الحميدة. وبحق هذا القرآن فإنك يانبي الله من عباد الله المرسلين. وإنك من الثابتين علىٰ طريق واضح قويم، وهو الإسلام، وهذه شهادة من الله أن محمدًا ﷺ علىٰ شِرْعة قيِّمة. [٥-٦] وهذا القرآن يانبي الله تنزيل من الله العزيز الذي لا يغالبه أحد، الرحيم بعباده التائبين؛ لكي تحذر قومك من قريش خصوصًا والعرب عمومًا الذين لم يسبق لهم ولا لآبائهم أن جاءهم نذير من الله يحذرهم من سوء عاقبة الشرك بالله، ولذا فهم في غفلة بسبب انقطاع الرسل عنهم. [٧] ثم بين سبحانه أن العذاب وجب علىٰ أكثر هؤلاء المشركين من قومه ﷺ، بعد إصراهم علىٰ الكفر والشرك بالله، فهم لا يؤمنون بما جاء به من الآيات الواضحات التي تدل علىٰ صدق رسالته ونبوته. وهذا القول الذي حق عليهم ليس ابتداءً، وإنما كان جزاء علىٰ إصرارهم علىٰ الكفر وتعذيب المؤمنين.

[٨] ثم وصف جل وعلا حال هؤلاء الكفار الذين أصرُّوا علىٰ كفرهم، فأخبر أن حالهم كحال من شدت أيديهم بسلاسل عظيمة وربطت تحت أعناقهم؛ فاضطروا إلىٰ رفع رؤوسهم إلىٰ السماء؛ فهم مغلولون عن كل خير؛ فلا يبصرون الحق ولا يهتدون إليه. وهذا الوصف يكون معنويًّا في الدنيا حقيقيًّا في الآخرة، وربما يكون حقيقيًّا في الدارين.

[٩] ثم أضاف جل وعلا صورة أخرىٰ؛ فأخبر أن حال هؤلاء الكفار كحال من جُعل من أمامهم سدٌّ ومن ورائهم سدٌّ؛ فهم بمنزلة من سُدَّ طريقه من بين يديه ومن خلفه، فأعمىٰ سبحانه أبصارهم بسبب كفرهم واستكبارهم؛ فهم لا يبصرون رشدًا ولا يهتدون طريقًا، وليس ذلك ابتداءً، وإنما كان لإصرارهم علىٰ الكفر ومحاربة المؤمنين. وهذه الآية والتي قبلها وآية في سورة الإسراء رقم (٤٥)، تسمىٰ آيات الإخفاء، بمعنىٰ: أن الخائف من عدوٍّ إذا قرأها راجيًا من الله أن يُخْفيه عن العدو؛ فإن العدو يمر من عنده ولا يبصره، وحكىٰ الشيخ صالح بن حميد وهو يفسر في الحرم سورة الإسراء: أن أحد العلماء لما سقطت الأندلس هرب فلحقه فارس فلما قرب منه قرأ العالم آية الإسراء فمر الفارس من جنبه وقال أين اختفىٰ، هذا جني، وحكىٰ لي الدكتور شير صاحب مستشفىٰ أم القرىٰ: لما استولىٰ جهيمان علىٰ الحرم وجعل علىٰ الأبواب حرَّاسًا من عنده، قال الدكتور: كانت أمي في الحرم؛ فكنت أحضر لها وجبات الأكل، وكنت إذا قربت من الباب قرأت الآية التي في سورة يس فلا يراني الحارس، ومعلوم أن هذه الكرامة لا تحصل إلا للمؤمن المضطر.

[١٠] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الكفار يستوي عندهم تحذير النبي ﷺ وعدم تحذيره لهم، فهم لن يصدقوا بما جاء به أبدًا.

[١١] وبين سبحانه أن تحذيره ﷺ إنما ينفع أولئك الذين آمنوا بالقرآن، واتبعوا ما فيه من الأحكام والإرشادات، وخافوا الله بالغيب؛ فهؤلاء بشِّرهم يانبي الله بمغفرة عظيمة لذنوبهم، وثواب كريم في الآخرة علىٰ أعمالهم الصالحة، وأعظم ثواب يحصلون عليه هو دخول الجنة. [١٢] يعظم جل وعلا نفسه بضمير الجمع بقوله: ﴿إِنَّا﴾، وقوله: ﴿نَحْنُ﴾، للتأكيد أنه هو وحده القادر علىٰ إحياء الموتىٰ يوم القيامة، وإحصاء أعمالهم وآثارهم الصالحة والسيئة؛ ولا يستطيع ذلك إلا هو جل في علاه؛ ثم بين سبحانه أن كل شيء أحصاه ووثقه في كتاب موضح فيه الصغير والكبير من العمل، وهذا الكتاب هو صحائف كل شخص، وكل ذلك في اللوح المحفوظ.

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ
﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ
إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا
وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ
رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ
ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ
وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن
ذُكِّرۡتُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ
رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ
مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ
ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً
إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا
وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ
بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي
يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾

[١٣] أمر سبحانه نبيه محمدًا ﷺ أن يضرب لهؤلاء المشركين المكذبين من قومه مثلًا يعتبرون به، وهو قصة أصحاب القرية التي جاءها المرسلون الذين أرسلهم عيسىٰ عليه السلام لدعوة أهل هذه القرية إلىٰ التوحيد والإيمان، ويحذرهم من الشرك والكفران. وهذه القرية علىٰ المشهور من أقوال أهل العلم هي إنطاكية.

[١٤] ثم بين جل وعلا أنه أمر عيسىٰ عليه السلام أن يرسل إلىٰ أهل هذه القرية رسولين؛ لدعوتهم إلىٰ الإيمان والتوحيد، ولكنهم كذبوا الرسل وازدادوا ضلالًا وجحودًا؛ فعزز عيسىٰ الرسولين برسول ثالث، فقال الرسل الثلاثة لقومهم: ياقوم إنا أرسلنا إليكم ولم نرسل لأحد غيركم؛ فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة الأوثان.

[١٥] فقال أهل القرية للمرسلين علىٰ سبيل الاستنكار: ما أنتم إلا أناس مثلنا، وليس لكم علينا فضل؛ فنحن وأنتم سواء في البشرية، وما أنزل الرحمن شيئًا من الوحي، فأنتم تكذبون علينا وتفترون علىٰ الله عز وجل.

[١٦] فأجابتهم الرسل قائلين: إن الله ربنا هو الذي أرسلنا إليكم، وهو يعلم أنَّا مرسلون إليكم، ولو كنّا مفترين عليه سبحانه لبادرنا بالعقوبة.

[١٧] ثم قال هؤلاء المرسلون: واعلموا أن الله لم يكلفنا بهدايتكم، وإنما كلفنا بإبلاغكم البلاغ الواضح البين.

[١٨] فازداد أصحاب القرية غيًّا إلىٰ غيهم وضلالًا إلىٰ ضلالهم وهددوا الرسل الثلاثة، وقالوا لهم: لقد حصل لنا بقدومكم الشر، ونزلت علينا الآفات بسببكم؛ فإن لم تنتهوا عما تدعونا إليه؛ لنقتلنكم رميًا بالحجارة، ولنعذبنكم عذابًا أليمًا موجعًا.

[١٩] فقالت لهم رسلهم: إنما حصل لكم شؤمكم بسبب كفركم وتكذيبكم، أتسخرون منا وتهددونا بالقتل بسبب أنا ذكرناكم وأنذرناكم؟! إنكم لقومٌ معانِدون مجاوزون للحد في الكفر والتكذيب.

[٢٠] ولما انتشر خبر تهديد أهل القرية للرسل فإذا برجل يأتي من مكان بعيد عن القرية يسرع المشي، فقال علىٰ سبيل النصح والتوجيه لأهل القرية: ياقوم اتبعوا هؤلاء المرسلين الذين أرسلهم الله لدعوتكم وإنقاذكم من النار.

[٢١] وقال لهم هذا الناصح أيضًا: ويا قوم اتبعوا هؤلاء الذين لا يطلبون منكم أموالًا علىٰ إبلاغ الرسالة، واعلموا أنهم مهتدون فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له.

[٢٢] ثم قال لهم أيضًا: وأي سبب يمنعني من عبادة ربي الذي خلقني؟ وفي كلامه تذكير لهم معناه: وأنتم كذلك ما الذي يمنعكم من عبادة ربكم الذي خلقكم، وإليه ترجعون فيجازيكم ويحاسبكم علىٰ أعمالكم!!

[٢٣] ثم قال أيضًا: وهل أترك عبادة الله الذي خلقني، وأعبد من دونه آلهةً أخرىٰ لا تضر ولا تنفع؟! وإن أرادني الرحمن بضرٍّ فإن هذه الآلهة المزعومة لا تدفع عني شيئًا من هذا الضر، ولا تنفعني بوجه من وجوه المنافع، ولا ينقذوني من عذاب الله إن أنا أشركتُ به ودعوتهم من دون الله.

[٢٤] ثم قال أيضًا: ولو أني فعلت ذلك فإني إذًا لفي غوايةٍ وبعدٍ عن الحق، وفي ضلالٍ بينٍ واضح.

[٢٥] ثم قال أيضًا: واعلموا ياقوم أنني آمنت بربكم فاستمعوا إلىٰ قولي وأطيعوني فيما دعوتكم إليه من الإيمان. فلما أعلن إيمانه تجمعوا عليه وضربوه ورفسوه بأقدامهم حتىٰ هلك وقتل.

[٢٦] فلما قتل وفارق الحياه جازاه الله إكرامًا له علىٰ إيمانه بأن أدخله الجنة؛ فلما رأىٰ الجنة وما فيها من النعيم المقيم قال: ياليت قومي يعلمون.

[٢٧] ثم قال رحمه الله: ياليتهم يعلمون أن الله غفر لي ذنوبي ورحمني بتوحيده والإيمان به، وتصديق رُسُلِه، ثم جعلني من المكرَمين عنده، وياليتهم يعلمون بحالي، وبما أنا فيه من النعيم المقيم؛ فيؤمنون كإيماني وينجَوْن كنجاتي.

قال ابن عباس: (نصح قومه حيًّا وميتًا).

* وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ
﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ
﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ
فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ
ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

[٢٨] ثم أخبر جل وعلا أنه انتقم من قوم هذا الرجل الصالح بعد أن قتلوه، لأنهم كذبوا الرسل وقتلوا وليًّا من أوليائه الصالحين، وتحقيرًا لهم أخبر سبحانه أنه لم يحتج لإهلاكهم أن ينزل عليهم ملائكةً تهلكهم، فهم أقلُّ من ذلك، وما كان جل في علاه منزلاً للملائكة؛ إذْ لا حاجة تدعو لذلك.

[٢٩] ثم بين سبحانه أنه عاقب هؤلاء المجرمين بصيْحةٍ واحدةٍ؛ فإذا هم هلكىٰ وصرعىٰ لا صوت لهم ولا حراك؛ فحلت بهم العقوبة في الدنيا بالاستئصال، وفي الآخرة بالعذاب في النار.

[٣٠] وبعد أن بين جل في علاه نهاية هؤلاء المجرمين المؤلمة قال سبحانه علىٰ سبيل الاتعاظ والاعتبار بهؤلاء الهالكين: ياحسرة ويا ندامة تغمر المكذبين الجاحدين وتغشاهم في الدنيا عندما يحل بهم العقاب، ويوم القيامة عندما يرون العذاب ويعاينوه بأم أعينهم، وسبب ذلك أنهم كانوا يستهزؤون ويسخرون بكل رسول يأتيهم يرغبهم بطاعة الله ويحذرهم عقابه.

[٣١] ثم بكَّتهم جل وعلا وأنَّبهم، فقال: ألم يعتبر ويتعظ هؤلاء الكفار بأننا أهلكنا كثيرًا من الأمم السابقة التي عصت الرسل، وأصرت علىٰ الكفر؛ فحل بها عذاب الله وانتقامه، وقد علموا أن هؤلاء الذين أهلكهم الله لا يمكن لهم الرجوع إلىٰ الدنيا ليخبروهم بما حل بهم من عذاب ودمار؛ فقد قضت حكمة الله أنهم إليها لا يرجعون.

[٣٢] واعلموا أن جميع منْ أهلكنا من هذه الأمم، ومن غيرهم؛ لمجموعون وموقوفون بين يدي الله يوم القيامة للجزاء والحساب.

[٣٣] ومن العلامات الواضحة لهؤلاء المكذبين التي تدل علىٰ قدرتنا علىٰ إحياء الموتىٰ؛ هذه الأرض الميتة التي إذا أنزلنا عليها الماء فإنها تحيا به وتخرج زرعها، وتخرج حبًّا يأكل منه الناس؛ فالذي أحيا هذه الأرض بعد موتها قادرٌ علىٰ أن يبعثكم بعد موتكم.

[٣٤] ثم جعل سبحانه في تلك الأرض بعد نزول المطر عليها: جنات كثيرة من النخيل وأشجار العنب، وفجر فيها عيون الماء التي يُنتفع بها في الشرب والسقي.

[٣٥] ثم بين جل شأنه أنه خلق هذه الجنات من النخيل والأعناب وعيون الماء ليأكل الناس من ثمارها التي لم تخلقها أيديهم؛ بل خلقها الله سبحانه وتعالىٰ، وما دام الأمر كذلك فالواجب عليهم شكر هذه النعم العظيمة والآلاء الجسيمة.

[٣٦] ثم أثنىٰ جل وعلا علىٰ ذاته بما هو أهل له؛ فتنزه وتقدس سبحانه الذي خلق المخلوقات كلها، وخلق من كل شيء نوعين متناسبين يكمل أحدهما الآخر؛ فخلق من كل ما تنبت الأرض من الأشجار والنباتات صنفين يلقح بعضهم بعضًا، وخلق من البشر زوجين الذكر والأنثىٰ، وخلق سبحانه أصنافًا وأزواجًا كثيرة لا يعلمها الناس ولم يطلعوا عليها.

[٣٧] ثم بين جل وعلا آيةً وعلامة أخرىٰ للناس تدل علىٰ وحدانية الله وقدرته علىٰ البعث: ألا وهي هذا الليل الذي يفصل منه النهار المضيء وينزعه منه؛ فإذا الظلام قد عمَّ الكون وغطَّاه؛ فسبحان الله الذي خلق الأزواج كلها مما نعلم ومما لا نعلم.

[٣٨] ومن الآيات أيضًا: هذه الشمس التي تجري وفق نظام محكَم، ومَسَارٍ محَدَّد لا تتعداه ولا تتجاوزه؛ واعلموا أن ذلكَ تقدير العزيز الغالب الذي قهر كل شيء، العليم بما يصلح شؤون عباده وأحوالهم حتىٰ مستقر الشمس النهائي يوم القيامة.

[٣٩] ومن الآيات أيضًا: هذا القمر الذي جعل الله له منازل متعددة؛ فينزل كل ليلة في منزلة لا يتعداها ولا يتجاوزها، فيبدأ هلالًا ثم يكبر فيصير بدرًا، ثم يرجع مرةً أخرىٰ هلالًا دقيقًا نحيفًا، يشبه الغصن الذي هو ساق طلع النخلة إذا يبس.

[٤٠] ثم بين سبحانه حال الشمس والقمر في الكون فقال: لا يصح للشمس أن تلحق بالقمر، ولا يصحُّ للَّيل أن يسبق النهار، فكل دائم سائر في مجراه ومساره الذي يجري ويسير فيه وفْق نظام دقيق رسمه لها، وكلٌّ من الشمس والقمر والليل والنهار في فَلَكٍ يجْرون ويترددون؛ فسبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض العلي العظيم.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا
لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ
وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ
يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ
ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

[٤١] ومن العلامات الدالة علىٰ وحدانية الله وقدرته ورحمته بعباده: أنَّ الله جل في علاه نجَّىٰ ذرية آدم من الغرق وحملهم في سفينة نوح المملوءة بالأزواج من البشر ومن الحيوانات.

[٤٢] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق لمن بعدهم من ذرية آدم مثل هذه السفينة يركبونها في البحار، وخلق لهم علىٰ الأرض الإبل والخيل والحمر والناقلات كالسيارات والطائرات وغيرها التي يركبونها وتوصلهم إلىٰ مرادهم.

[٤٣] ولو أراد جل وعلا أن يغرق من في هذه السفن؛ لأغرقهم ولن يجدوا أحدًا يستصرخونه أو يستغيثون به لينقذهم من الغرق.

[٤٤] ثم بين سبحانه أنهم لن يجدوا من ينقذهم سوىٰ رحمة الله ولطفه بهم وبحالهم، فليتمتعوا في حياتهم إلىٰ أن تنتهي آجالهم فلعلهم يؤمنون ويوحدون، ويستدركون ما فرطوا فيه.

[٤٥] وإذا قيل لهؤلاء المشركين: احذروا من عقوبات الدنيا، ومن أهوال الآخرة وعرصات القيامة؛ لعلكم ترحمون، فتنجون من هذه الأهوال؛ أعرضوا عن ذلك ولم يستجيبوا.

[٤٦] وما تأتي هؤلاء المشركين من آية من آيات الله تدل علىٰ وحدانيته، وتأمرهم باتباع رسوله ﷺ؛ إلا كانوا عنها معرضين، ولها مكذبين، وبها يستهزؤون.

[٤٧] وإذا قال أحد من المؤمنين لهؤلاء المشركين: أنفقوا علىٰ الفقراء والمحتاجين شيئًا مما أعطاكم الله من الخير والنعيم، قالوا سخرية واستهزاءً بالمؤمنين: أنطعم من لو شاء الله أطعمه؟! إن أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال مبين في أمركم وطلبكم منا الإنفاق علىٰ هؤلاء المحتاجين.

[٤٨] ويواصل هؤلاء الكافرون التهكم والاستهزاء بالدعاة فيقولون علىٰ سبيل التكذيب والاستنكار: متىٰ تقوم الساعة إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به؟!.

[٤٩] فأخبر جل وعلا أن الأمر سهل ويسير؛ فما هي إلا صيحة واحدة تأخذهم فجأة وهم يختصمون في أمور حياتهم. وهذه هي النفخة الأولىٰ والتي تسمىٰ نفخة الفزع والموت.

[٥٠] وبسبب هذه الصيحة التي جاءتهم فجأة فإنهم لا يستطيعون حينها أن يوصوا بشيء، ولا أن يتداركوا شيئًا، ولا يستطيعون الرجوع إلىٰ أهاليهم وأولادهم إذ الكل قد مات.

[٥١] فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور فإذا بالناس يخرجون من قبورهم سراعًا للوقوف بين يدي ربهم ليقضي فيهم بقضائه العادل.

[٥٢] وحينها يقول المكذبون بالبعث: ياحسرتنا، وياهلاكنا، من ذا الذي أخرجنا من قبورنا، وبعثنا؟! فيقال لهم: هذا هو البعث الذي وعدكم الله به، وكنتم تستهزؤون به وتستعجلونه، وهذا هو البعث الذي أخبركم عنه رسلنا الصادقون الذين كنتم لهم تكذبون.

[٥٣] ثم بين سبحانه أن بعثكم إخراجكم أيها الناس من قبوركم كان بصيحة ونفخة واحدة من إسرافيل؛ فإذا الجميع قائم ماثلٌ بين يدي الله جل في علاه للجزاء والحساب، وفي هذا دليل علىٰ سرعة حضورهم للحساب والجزاء دون أن يتخلف منهم أحد.

[٥٤] وفي هذا اليوم العظيم - يوم القيامة - يوم الجزاء والحساب لا تُظلَم نفسٌ شيئًا ولو كان صغيرًا، فلا ينقص من حسنات أحد ظلمًا، ولا يزاد في سيئات أحد ظلمًا، ولا يجازىٰ أحدٌ إلا بما عمل في الدنيا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ
فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ
وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟
ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ
أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ
ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ
جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى
كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾
ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ
فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ
عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ
﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

[٥٥] يخبر جل وعلا أن أهل الجنة يوم القيامة مشغولون بنعيم الجنة، ملتذون به، يتمتعون بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

[٥٦] ثم أخبر سبحانه أن أهل الجنة ومن اتبعهم من أزواجهم في ظلال الجنة، يتنعمون معهم ويؤانسونهم، وهم متكؤون اتكاءً لكمال الراحة واللذة والطمأنينة.

[٥٧] ولهم في الجنة فاكهةٌ كثيرةٌ طيبةٌ لذيذةٌ، لا تنقطع عنهم أبدًا، ولا يُمنَعون من أكلها، ولهم في الجنة أيضًا كلّ ما يطلبونه ويتمنونه.

[٥٨] ثم ينعم جل وعلا علىٰ أهل الجنة بنعمة من أعظم ما يكون من نعيم أهل الجنة، وهي: النظر إلىٰ وجه الله الكريم، ثم إلقاء السلام عليهم من الله جل في علاه فيسلِّم الله عليهم، فيَسْلَمون من جميع الوجوه، ويتنعمون برضا الرب الرحيم عليهم.

[٥٩] أما المكذبون المجرمون فجزاؤهم يوم القيامة أن يقال لهم: تميزوا بأنفسكم وابتعدوا عن المؤمنين، ثم تدفعهم الملائكة إلىٰ النار.

[٦٠] ثم ذكَّر جل وعلا عباده بالوعد الذي أخذه عليهم فقال لهم - توبيخًا وتبكيتًا -: ألم آمركم وأوصيكم - يا بني آدم - ألا تعبدوا الشيطان، وألا تطيعوه، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة، لا تخفىٰ ولا تنطلي عداوته علىٰ أحد.

[٦١] ثم قال سبحانه: ألم آمركم يا بني آدم بإفرادي بالعبودية؟ وأخبركم أن توحيدي واتباع رسلي هو الصراط الحق المستقيم الذي يوصل لرضاي، وإلىٰ جنة رب العالمين؟!.

[٦٢] ثم قال جل في علاه: ولكنكم أيها الكفرة لم تطيعوا أمري، ولم تعملوا بتحذيري إياكم من الشيطان، ولم تتخذوه عدوًّا لكم، فكان أنْ أضل كثيرًا منكم عن صراط الله المستقيم، ألم تكن لكم يامن كفرتم بآيات الله عقولٌ تعرفون بها عداوة الشيطان لكم فتهديكم لمخالفته، واتباع أمر الله ورُسُله؟!!.

[٦٣-٦٤] وبعد هذا التوبيخ يقال لهؤلاء المكذبين: فهذه نار جهنم التي كنتم توعدون بها إن كذبتم رسلي، واتبعتم شياطينكم وأهواءكم. ادخلوها اليوم وقاسوا حرَّها وعذابها، جزاءً لكم علىٰ كفركم وجحودكم وتكذيبكم أنبياء الله ورسله.

[٦٥] ثم أخبر جل وعلا بما يحصل للمشركين يوم القيامة حيث يغلق أفواههم ويسكتها فلا يستطيعون الكلام بها، وذلك حين ينكرون ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ثم يجعل أيديهم وأرجلهم تنطق بالكلام فتشهد عليهم، وتتكلم بما كانوا يعملون.

[٦٦] ولو شاء جل وعلا لطمس علىٰ أعين هؤلاء الكفار المكذبين فيعميها؛ فإذا أرادوا أن يبادروا طريقهم إلىٰ الصراط ليجتازوه إلىٰ الجنة لم يهتدوا إليه، لأنهم لا يبصرون الطريق فقد عميت أبصارهم؟!

[٦٧] ولو شاء جل وعلا لمسخ حركة هؤلاء المجرمين المكذبين وأوقفها؛ فلا يستطيعون التحرّك إلىٰ الأمام، ولا الرجوع إلىٰ الخلف، ولن تحصل النجاة لهم، وإنما يُكردسون في نار جهنم. نسأل الله السلامة والعافية.

[٦٨] ثم ذكَّر جل وعلا أن من سنته في الخلق أن من يُعمَّر من بني آدم يرجع - في حال كبر سنه وهرمه - إلىٰ حال الضعف الذي بدأ منه، فتضعف قوته، ويضعف جسده، ويضعف عقله، فيامن رفضتم الهدىٰ أليست لكم عقولٌ تتفكرون بها في هذه الحالة؟! أليست لكم عقولٌ تدركون بها أن من خَلَقَ الإنسان وفعل به هذا قادرٌ علىٰ بعثه بعد موته؟!!

[٦٩] ثم نفىٰ جل وعلا عن المصطفىٰ ﷺ أن يكون شاعرًا، ولم يمكنه سبحانه من تعلم الشعر؛ بل أخبر أنه لا ينبغي له أن يكون شاعرًا، وأنه ﷺ بُعث ليحمل النور والهدىٰ الإلهي لهذه الأمة؛ فلا ينبغي أن يهذي بالشعر الذي يقوله أصحاب الأخيلة الشيطانية، الذين يقولون ما لا يفعلون، وفي كل وادٍ يهيمون، كما قال الله ذلك عنهم في سورة الشعراء، ثم بين سبحانه أن هذا القرآن الذي أنزله الله علىٰ نبيه ﷺ ما هو إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب، وهو قرآن واضح بين الدلالة علىٰ المقاصد.

[٧٠] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه أنزل هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ؛ ليُنذر ويُذكِّر به من كان حيَّ القلب والفهم، أما من كان مصرًّا علىٰ الكفر والضلال، واستمر علىٰ شركه وتكذيبه لرسل الله، فقد حق عليه عذاب الله وسخطه بعد أن قامت عليهم الحجة.

[٧١] يأمر جل وعلا العباد بالنظر إلىٰ ما سخر لهم من هذه الأنعام المتنوعة فقال: ألا ترون أن من مظاهر قدرة الله العظيمة أنه خلق هذه الأنعام مما عمل الله جل في علاه لأجلكم، ثم إن الله ملكها لكم تتصرفون فيها كيفما تشاءون.

[٧٢] ثم سخر جل وعلا هذه الأنعام لكم فجعل منها ما تركبون عليه في أسفاركم، وتحملون عليها أثقالكم، ومنها ما تستخدمونه في الحرث، ومنها ما جعله للأكل.

[٧٣] وكذلك جعل سبحانه لكم في هذه الأنعام منافع أخرىٰ تنتفعون بها، كالانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا، ومن جلودها قِرَبًا ومفارش ولباسًا، وتشربون من ألبانها، وتصنعون من هذه الألبان الأجبان وغير ذلك، وبعد هذا التذكير والنظر أليس من حق المنعم أن يُشكر علىٰ هذه النعم التي أنعم بها عليهم؟.

[٧٤] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين اتخذوا آلهةً من دونه يعبدونها ويتقربون إليها، رجاء نصرها وشفاعتها لهم، وهذا في غاية البطلان والضلال والغواية.

[٧٥] ثم بين جل في علاه أن تلك الآلهة المزعومة لا تستطيع نصر نفسها فكيف تستطيع نصرهم؛ بل جعل الكفار من أنفسهم جنودًا محضَرون لهذه الأصنام يدافعون عنها، وينصرونها؟!!

[٧٦] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن لا يحزن لقول هؤلاء المشركين وافترائهم عليه، فإن الله علىٰ علمٍ تام بما يُخفون من أقوالهم، وما يُعلنون منها ويُظهِرون، وسوف يجازيهم سبحانه ويحاسبهم عليها.

[٧٧] يرد جل وعلا علىٰ مقولة أحد صناديد قريش المنكرين للبعث؛ فقال سبحانه: أولم ينظر هذا المنكر للبعث أنَّا ابتدأنا خلقه من أضعف الأشياء، من نطفة من ماء مَهين؟!!، فلما كبر واستوىٰ وصار رجلًا بدأ بالخصام والجدال؟!! وإنكار البعث!!

[٧٨] ثم إن هذا الإنسان المنكر للبعث المجادل بالباطل ضرب لله مثلًا لا ينبغي ضربه؛ حيث أنكر قدرة الله جل في علاه علىٰ إحياء الموتىٰ؛ حيث قال: هل يستطيع ربك يامحمد إعادة هذه العظام البالية المتفتتة إلىٰ الحياة مرة ثانية؟ ونسي هذا الجاهل أصل خلقته؛ وأن الله خلقه من نطفة من ماء مهين حقير.

[٧٩] وقل يانبي الله لهذا المنكر للبعث: يحييها ويعيد خلقها اللهُ الذي ابتدأ خلقها أول مرة، فالذي أوجدها من العدم قادر علىٰ إعادتها مرة ثانية، وهو سبحانه بكل مخلوقٍ عليمٌ علمًا تامًّا؛ لأنه سبحانه هو الذي خلقه، وأوجده من العدَم.

[٨٠] ومما يدل علىٰ وحدانية الله، وقدرته علىٰ البعث، وأنه سبحانه لا يستحيل عليه شيء: هذا الشجر الأخضر الرطب، يخرج الله لكم منه نارًا، توقدونها وتُشعِلون منها، وتنتفعون بها، فكما أخرج سبحانه النارَ المحرقة من هذه الشجرة؛ فإنه يخرجكم أحياء من قبوركم، ويعيدكم مرَّةً أخرىٰ.

[٨١] ثم يوبخ جل وعلا هؤلاء الكفار فيقول: أوليس الذي ابتدأ خلق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهما قادرٌ علىٰ أن يخلق مثلهم؟!! بلىٰ هو قادرٌ علىٰ ذلك سبحانه وتعالىٰ، فهو الخلَّاق لما يشاء، العليم بمخلوقاته.

[٨٢] ثم أخبر جل شأنه أنه إذا أراد شيئًا فإنه يأمره بقوله (كُنْ) فيكون مباشرةً من غير مانع ولا توقُّفٍ، وفي هذا دليل علىٰ عظيم قدرته سبحانه، وأنها لا حدود لها.

[٨٣] ثم نزه جل في علاه نفسه وقدسها، فتنزيهًا وتقديسًا له سبحانه الذي مَلَكَ كلَّ شيءٍ، وقهر كل شيء، وإليه مرجع جميع الناس فيحاسبهم علىٰ أعمالهم ويجازيهم عليها.